العمـــارة الإســـلامية في العـهد العبـاسي الأول – (الجزء 2)

(132-232 هـ / 750-850م)

4. الرقـة / الر افـقة ar-Raqqa ar-Rafiqa

تقع مدينة الرقة عند ملتقى نهر البليخ مع نهر الفرات. بداياتها تعود إلى الألف الثانية ق.م. في تل البيعة الذي كان يعرف بتتل. أسس سلوقس نيكاتور في القرن الثالث ق.م. مدينة نيكوفوريون إلى الجنوب من التل، ثم سميت كالينيكوس أيام الرومان. فتحها المسلمون 18 هـ/639 م وأطلقوا عليها اسم الرقة.

الموقع المميز للمدينة بين بلاد الرافدين والشام دفع الخليفة أبي جعفر المنصور في عام 155 هـ/772 م إلى تأسيس مدينة جديدة إلى جانب الرقة أطلق عليها اسم الرافقة. ولكن هذه المدينة ليست دائرية مثل بغداد وإنما اتخذت شكل حدوة الفرس. يحيط بها سور مدعم بـ 132 برجا نصف دائري. أهم ما وصلنا اليوم بقايا السور وآثار باب المدينة الجنوبي المعروف بباب بغداد إضافة إلى بقايا الجامع الكبير.

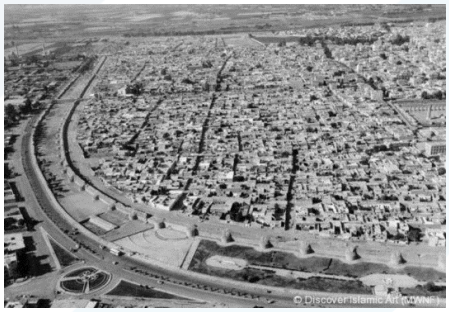

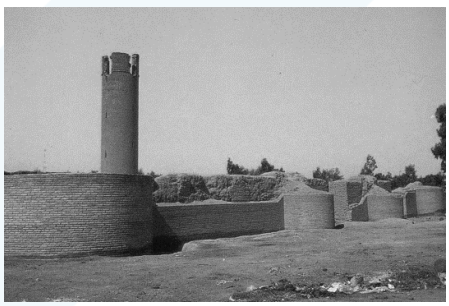

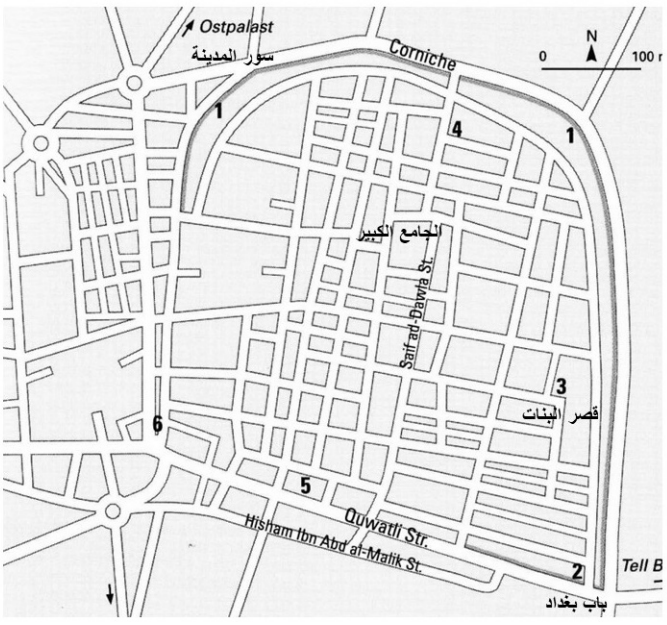

الرقة / الرافقة: مخطط المدينة الحديثة مبينا عليه المباني الأثرية الباقية من زمن تأسيس المدينة

صورة جوية توضح المدينة على شكل حدوة حصان - الجامع الكبير

يتمتع **باب بغداد** Baghdad Gate بأهمية خاصة كونه يحتفظ بأقدم العناصر المعمارية العباسية، بعد زوال بغداد المنصور. الباب يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة وهو مبني بالآجر، على شكل برج مستطيل فتحت ضمنه بوابة يعلوها قوس يعرف نمطه **بالقوس العباسي**، الذي يمتاز بأنه يرسم من أربعة مراكز. كان يحيط بفتحة الباب محرابان، زال أحدهما وبقي الآخر. أعلى الواجهة يزدان بسلسلة من المحاريب، يبلغ عددها أحد عشر محرابا، بقي منها ثمانية وهي تنتهي بأقواس عباسية تضم من الداخل **أقواسا مفصصة** (خماسية الفصوص) تستند على أنصاف أعمدة.

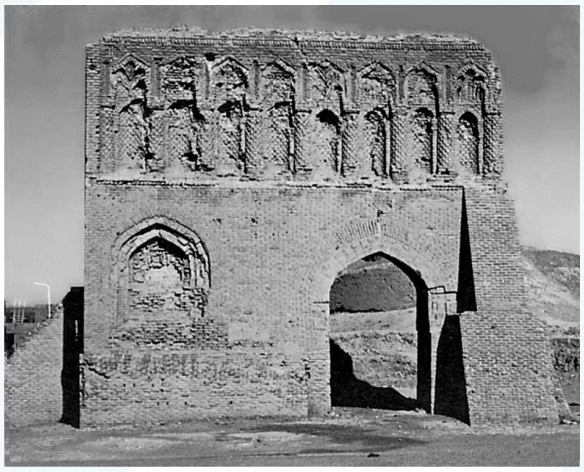

آثار باب بغداد في الرقة

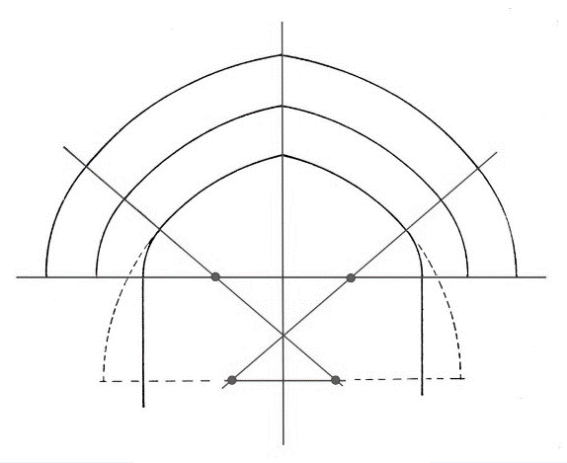

القوس العباسي وطريقة إنشائه

الجامع الكبير في الرقة Great Mosque of ar-Raqqa، الذي يقع في شمال المدينة، بقي منه أجزاء من السور والمئذنة وواجهة الحرم المؤلفة من 11 قوسا محمولة على دعامات والأرجح أنها تعود إلى التجديدات التي تمت في عهد السلطان نور الدين محمود بن الزنكي سنة 561 هـ / 1165 م.

الجامع مستطيل الشكل أبعاده 108 × 92 م. مخططه مزيج بين العمارة الأموية في بلاد الشام والعمارة العباسية في إقليم العراق. فالجامع مشيد بالآجر وله أروقة مزدوجة ذات صفين من الأعمدة وسوره الخارجي مزود بالأبراج الدائرية (كما في القصور الأموية والمساجد العباسية). حرم الجامع مؤلف من ثلاثة مجازات موازية لجدار القبلة كانت تحمل أسقفا جملونية، تذكر بالجامع الأموي في دمشق. موقع المئذنة غريب، فهي تقع ضمن صحن الجامع على قاعدة مربعة لتستمر أسطوانية الشكل نحو الأعلى (متأثرة بمآذن العراق).

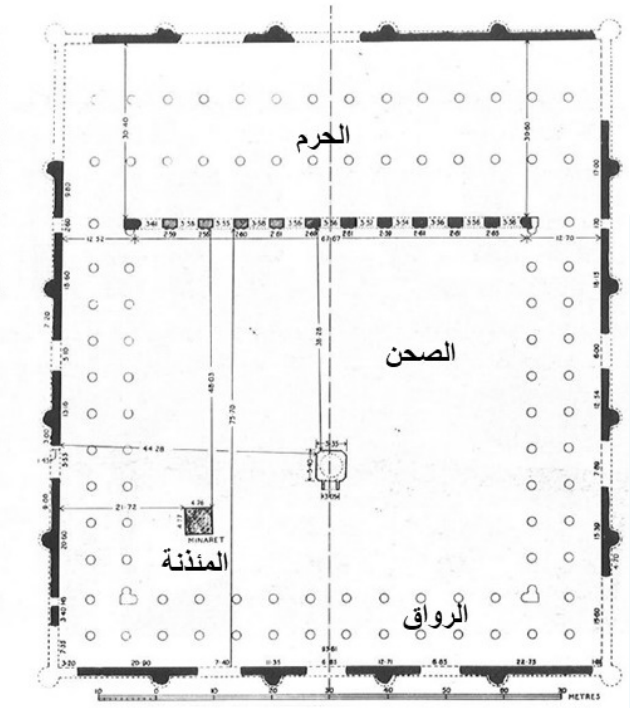

الجامع الكبير في الرقة: المسقط - السور الخارجي مع الحر - المئذنة الأسطوانية

ومن المعالم التي لا زالت آثارها قائمة والتي تعود إلى الرقة / الرافقة قصر، معروف **بقصر البنات**، مبني من الآجر ويضم محاريبا مشابهة لتلك الموجودة في باب بغداد.

عرفت المدينة بعد ربع قرن من الزمن أهمية متزايدة أيام الخليفة هارون الرشيد في سنة 180هـ/ 796 م، الذي نقل العاصمة إليها فغدت لمدة اثنا عشر عاما مركز الدولة الإسلامية. رافق ذلك حركة بناء نشطة حيث شيد إلى الشمال من الرافقة ما لا يقل عن عشرة قصور مساحتها الإجمالية 10كم2. تم استخدام هذه القصور إثر وفاة هارون الرشيد في عام 808 م وعودة العاصمة إلى بغداد كمقر صيفي للخليفة. هذه القصور تختفي اليوم جميعها تحت المدينة الحديثة، ما عدا القصر المعروف بالقصر الشرقي الذي جرى ترميمه حديثا وعثر في هذه القصور على زخارف جصية تماثل زخارف سامراء.

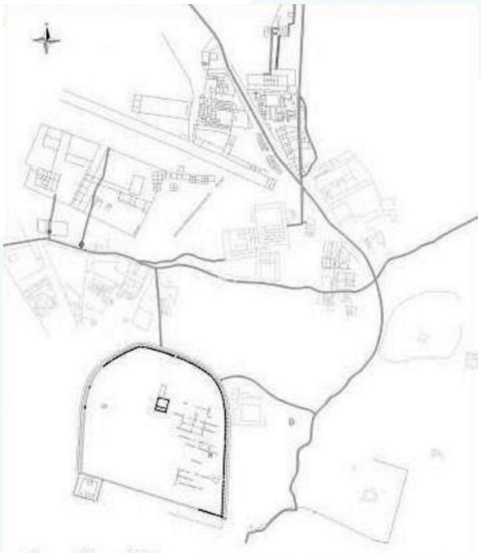

توسع مدينة الرقة باتجاه الشمال
في زمن هارون الرشيد

5. خصائص العمارة في العهد العباسي الأول في العراق وسورية

أدى انتقال مركز الدولة الإسلامية من بلاد الشام إلى العراق إلى التأثر بالمعطيات الطبيعية للمنطقة إضافة إلى التأثر بعمارة الحضارات السابقة في بلاد الرافدين وبالعمارة الساسانية التي طبعت المنطقة بطابعها قبل الإسلام مباشرة. وكان من أهم المتغيرات اعتماد اللبن والآجر كمواد رئيسة للبناء بدلا من الحجر. فغدا الآجر وكسوته بالنقوش الجصية سمة من سمات العصر.

الأبنية العباسية، كالقصور والمساجد، تتصف بالضخامة والمساحات الواسعة وبرحابة باحاتها بالمقارنة مع أبنية الأمويين. وقد تميزت أيضا بثخانة أسوارها المدعمة بالأبراج نصف الدائرية. وشاع استعمال القبوات الأسطوانية والمتصالبة واستعمال الدعامات المستطيلة المبنية بالآجر. ومن العناصر المعمارية المميزة استخدام الإيوان والبوابات. وظهرت أشكال جديدة للأقواس عرفت بالقوس العباسي بالإضافة إلى أقواس تزيينية مثل القوس المفصص والمحاريب التزيينية.

عمـــارة العـهد العباسي الأول في مصـــر

Abbasid Architecture in Egypt

أسس المسلمون **مدينة الفسطاط** بعيد فتحهم لمصر وهي تقع في موقع القاهرة الحالية وكان من أشهر مبانيها **جامع عمرو بن العاص** الذي لا زال قائما وتطور عبر العصور. واستمر ازدهار المدينة وتطورها زمن العباسيين.

1. مقيـاس النيـل Nilometer

تميز العهد العباسي الأول بالتقدم التقني ولا سيما في مجال توسيع رقعة الأراضي الزراعية وزيادة المحاصيل. أولى الخلفاء العباسيون أهمية كبيرة لذلك عن طريق إنشاء الأقنية سواء في بلاد الرافدين أو في مصر طوال سيطرتهم عليها. لذلك أمر الخليفة المتوكل في عام 247 هـ/ 861 م ببناء مقياس النيل وهو مبنى تقني متميز يقع جنوب جزيرة الروضة المقابلة للقاهرة القديمة اليوم.

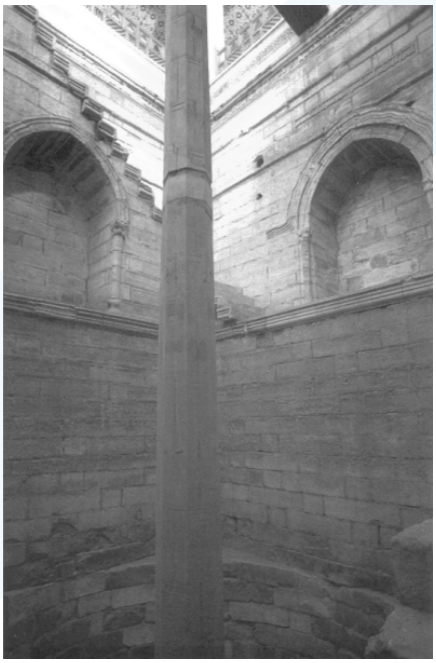

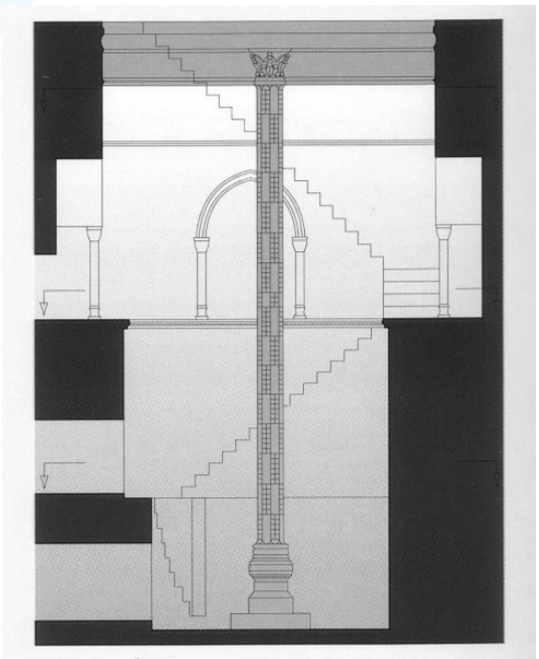

مقياس النيل: مقطع - لقطة داخلية توضح عمود القياس

مقياس النيل هو عبارة عن بئر محفورة في الأرض تصل إليها مياه النيل من ثلاثة مناسيب مختلفة. يتوسط البئر عمود حجري مقطعه مثمن ارتفاعه 19 ذراعا، نقشت عليه إشارات للدلالة على أعلى منسوب يصل إليه النيل في كل عام. كان هذا الرقم ذو أهمية لأنه يعتبر المقياس الذي كان يحدد نسبة الضرائب الزراعية، التي كان يستوفيها الخليفة من إقليم مصر عندما كان يسيطر عليه.

البئر تتألف من ثلاث طبقات: السفلى أسطوانية، أما الوسطى والعلوية فشكلهما مربع مع ازدياد طول الضلع نحو الأعلى. جدران البئر مبنية من مداميك متقنة من الحجر المنحوت. ينزل إلى البئر بدرج يدور حتى يصل إلى القعر. وفي الجدران أواوين قليلة العمق.

العمارة في مصر في عهد الطولونيين - Tulunid Architecture

(254-292 هـ/868-905 م)

تمكن أحمد بن طولون، الذي ولاه الخليفة المعتمد سنة 254 هـ / 868 م على مصر من الاستقلال عن الدولة العباسية وجعل الحكم وراثيا في أولاده. دامت دولة الطولونيين قرابة 50 عاما إلى أن قضى عليها الخليفة المكتفي عام 292 هـ/905م. أنشأ ابن طولون مدينة القطائع عاصمة له وهي تقع بين جبل المقطم والفسطاط. بنى فيها قصرا وجامعا كبيرا وبيمارستانا وقناة مياه من النيل. ولكن لم يبق منها اليوم إلا الجامع.

1. جـامع ابن طـولون Mosque of Ibn Tulun

بدئ ببناء جامع ابن طولون عام 263 هـ/ 876 م واستغرق بناؤه عامين. تأثر الجامع بعمارة مساجد سامراء نظرا لنشأة ابن طولون في هذه المدينة ويظهر ذلك في استخدام الآجر في البناء والزخارف الجصية كعنصر تزييني وفي المئذنة الحلزونية، بالإضافة إلى إحاطة الجامع بسور خارجي يشكل زيادة حول الجامع، كما في جامع سامراء الكبير. ومع ذلك نجد أوجه اختلاف واضحة بين المسجدين.

الجامع مستطيل الشكل أبعاده 140 × 122 م. جداره الخارجي خال من الأبراج، يضم أبوابا كثيرة تؤدي إلى الداخل. يحيط بالجامع سور آخر مماثل، يحجز أرضا خلاء تسمى الزيادة وهي تحيط بالجامع من ثلاث جهات فقط ما عدا الجهة الممتدة خلف جدار القبلة، حيث كانت تقوم دار الإمارة. وبذلك تصبح المساحة التي يشغلها جامع ابن طولون عبارة عن

مربع طول ضلعه 162 م وهو يشكل بذلك أكبر المنشآت الإسلامية في مصر. وهنا أيضا الغرض من الزيادة غير معروف، ربما كانت لعزل الجامع عن الأسواق المحيطة أو لنزول المسافرين والحجاج.

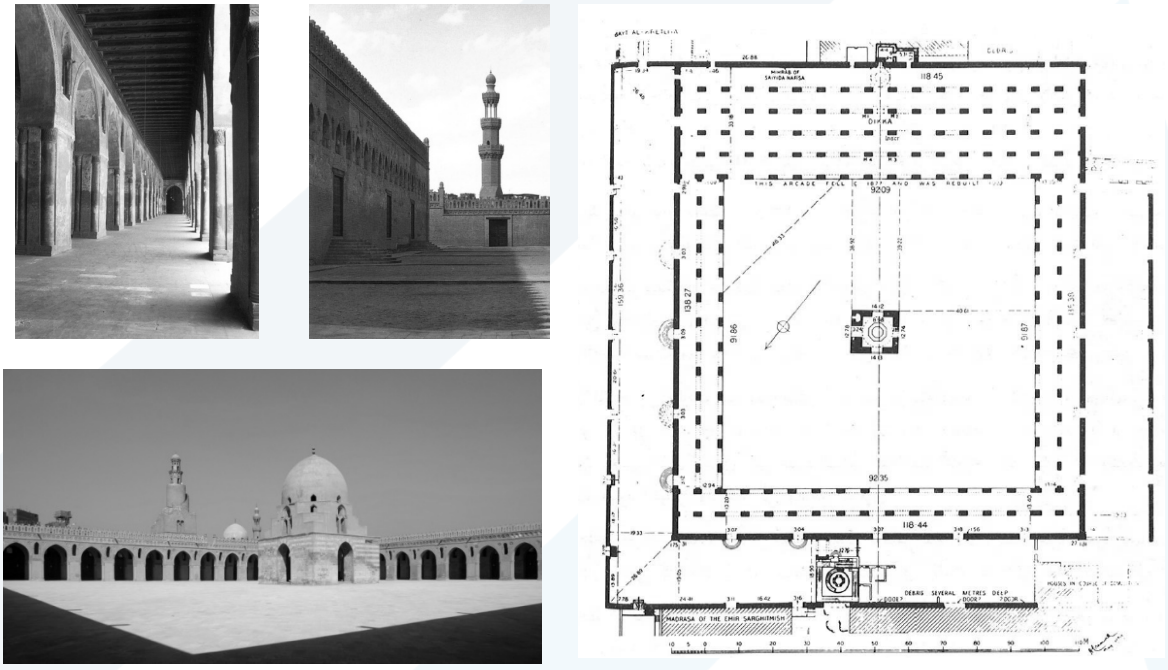

جامع ابن طولون: مسقط - الزيادة - أحد الأروقة - صحن الجامع مع الميضأة والمئذنة في الخلف

صحن الجامع مربع طول ضلعه 90 م، محاط من ثلاث جهات بالأروقة، المؤلفة من مجازين موازيين للجدار الخارجي. حرم الجامع مستطيل طويل يمتد من الشرق إلى الغرب يتألف من خمسة مجازات موازية لجدار القبلة تتكون من دعائم آجرية مستطيلة تحمل أقواسا مدببة، كما في الأروقة وهي تحمل السقف المستوي المكون من الجسور والألواح الخشبية. شُكلت الزوايا الأربعة لكل دعامة على شكل سويرية من الآجر للتخفيف من ضخامتها.

واجهة الحرم المطلة على الصحن تزدان بزخارف جصية تحيط بالأقواس على شكل شريط مستمر وتغطي أيضا باطن الأقواس العريضة. توجد بين الأقواس فتحات تنتهي بأقواس مدببة، الهدف من هذه الفتحات تخفيف الحمولات بالإضافة إلى التزيين وعلى جانبي كل منها حليات دائرية من الجص تشبه الزهرة. هذا النظام يتكرر داخل الحرم والأروقة، بينما تنتهي الواجهات المطلة على الصحن من الأعلى بشريط زخرفي مكون من سلسلة من الإطارات المثمنة يضم كل منها زهرة. أما الجدار الخارجي للمسجد والسور فينتهيان من الأعلى بسلسلة من الشرافات الآجرية المميزة يبلغ ارتفاعها مترين. وتشكل النوافذ العلوية الموجودة ضمن الجدار الخارجي للمسجد والمزودة بشبك جصي متقن عنصرا زخرفيا إضافيا، يدخل النور إلى أعماق الحرم والأروقة.

مئذنة الجامع تقع كما في المسجد الأموي في دمشق في منتصف الرواق الشمالي وهي تشبه مئذنة سامراء الملوية بشكلها الحلزوني الذي يقوم فوق قاعدة مربعة. شيدت في البدء من الآجر، مثلها مثل بقية الجامع، ثم جددت في عهد المماليك في عام 1296 م وبنيت بالحجر المنحوت. وفي نفس الوقت جددت بحرة الوضوء التي تتوسط الصحن وجعلت فوقها قبة. وتعود إلى هذه الفترة أيضا القبة التي تتقدم المحراب في الحرم.

عمـارة العـهد العبـاسي في تونس - دولـة الأغـالبة

Aghlabid Architecture

(184-296 هـ/800- 909 م)

ولى هارون الرشيد في عام 184 هـ/800 م الأمير إبراهيم بن أغلب على إفريقية، وما لبث هذا الأخير أن استقل بحكمها وجعل الولاية وراثية في أولاده وامتد نفوذ الأغالبة إلى جزيرة صقلية وإلى جنوب إيطاليا. استمر ذلك إلى أن زالت هذه الدولة بظهور الفاطميين سنة 296 هـ/909 م.

نشطت حركة البناء والإعمار في عهد الأغالبة، الذين أسسوا عاصمتين في ضواحي القيروان الأولى تدعى العباسية والثانية رقادة ولكنهما زالتا. ولكن الازدهار المعماري زمن الأغالبة لا يزال ظاهرا في أبنية مدينتي القيروان وسوسة.

1. جـامع القـيروان Great Mosque of Qairuan

جامع القيروان يعود في بداياته إلى العهد الأموي ولكنه تهدم وجدد عدة مرات. الجامع الحالي يرجع إلى عهد الأغالبة وتحديدا إلى أيام الأمير زيادة الله بن إبراهيم، حيث هدم البناء القديم وأعيد بناؤه وفق مخطط جديد وتم ذلك في عام 221 هـ/836 م. ولم يبق من الجامع الأقدم إلا أجزاء من المئذنة الأموية.

جامع القيروان يشبه مساجد سامراء، فهو مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب أبعاده 120 × 70م تقريبا. ولكن شكله غير منتظم. جداره الخارجي مدعم من الخارج بدعائم جدارية حجرية وهو يضم ثمانية أبواب، أربعة منها على شكل بوابة يعلوها قبة. اثنان منهما يؤديان إلى الحرم مباشرة من الشرق والغرب واثنان يقعان في الجدار الغربي.

يعتقد أن الصحن لم يكن محاطا بالأروقة منذ البدء وأنها أضيفت في عهد الأمير الأغلبي أحمد أبي إبراهيم. حرم الجامع مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب يتكون من 17 مجازا عموديا على جدار القبلة تحمل أقواسا ولكنها لا تستمر إلى جدار القبلة، بل تستند على صف معترض من الأقواس يشكل مجازا موازيا لجدار القبلة، يتعامد مع المجازات الأخرى. وبحيث يؤلف مع المجاز الأوسط الأوسع ما يشبه حرف T اللاتيني. هذا التصميم سيصبح شائعا في مساجد المغرب. وهناك صفان آخران من القناطر المعترضة تقطع المجازات بعد كل ثلاثة أقواس.

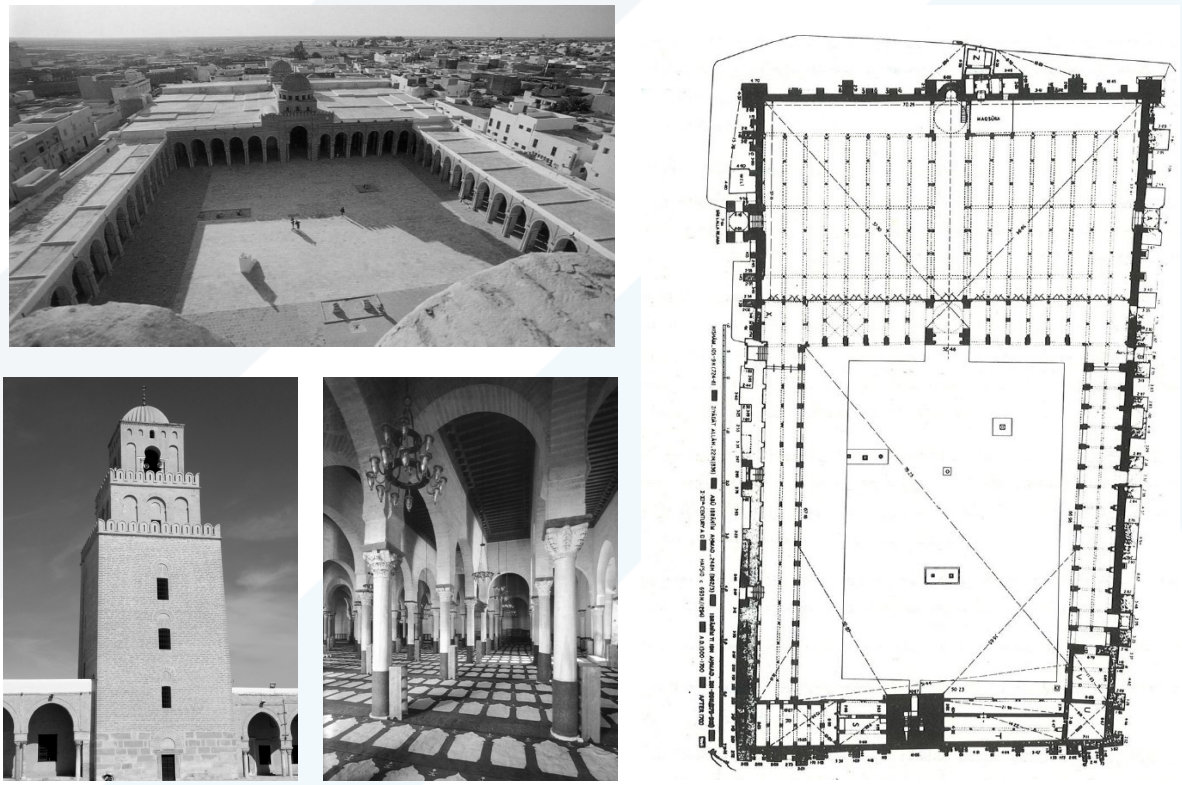

جامع القيروان: مسقط - اصورة علوية تبين الصحن وخلفه الحرم - حرم الجامع - المئذنة المربعة

جرت على الجامع تعديلات هامة أغلبها يعود إلى حوالي عام 248 هـ/862 م (الأمير الأغلبي أحمد أبي إبراهيم)، حيث تمت إضافة صفين من الأقواس على المجاز الأوسط وقبة أمام المحراب. وتمت توسعة الحرم من جهة الصحن بإضافة رواق يتقدم الحرم يتألف من قنطرتين على امتداد المجازات السبعة عشرة، مع قبة في وسط الرواق تعرف بقبة البهو. وبذلك أصبح المجاز الأوسط للحرم لا يتميز فقط باتساعه وبارتفاعه وإنما أيضا بقبتيه (قبة في أوله وقبة عند المحراب).

الحرم مكون من أعمدة من الرخام والغرانيت معادة الاستعمال تحمل تيجان متقنة تعلوها أقواس حدوية دائرية أو مدببة. السقف مستو تحمله جسور خشبية. المحراب الحالي يعود مع القبة التي تتقدمه، إلى عهد أحمد أبي إبراهيم.

تجويف المحراب نصف الدائري مكسو بألواح من الرخام المنقوش بالزخارف ذات الحفر الغائر. طاسة المحراب كسيت بالخشب المزخرف. يزين قوس المحراب المحمول على عمودين من الرخام الأحمر ألواح من الخزف تعتبر الأقدم في العمارة الإسلامية.

المئذنة تتوسط الرواق الشمالي وتتميز بضخامتها فهي تتألف من برج مربع كبير مبني بالحجارة الكبيرة يعود إلى العهد الأموي يعلوه برج مربع أصغر حجما، ثم برج ثالث أصغر ينتهي بقبة صغيرة محززة. والبرجان الأخيران مشيدان بالحجارة الصغيرة في عهد الأغالبة. نلاحظ أن الشرافات التي تنتهي بها أجزاء البرج تنتهي بنصف دائرة.

2. بـــرك الأغـــالبة

لم تقتصر فعالية البناء عند الأغالبة على بناء المساجد، بل تجاوزتها إلى الأبنية التقنية أو أبنية الخدمات ولعل أهم ما نعرفه وما لا زال قائما منها برك الأغالبة في القيروان. التي تعتبر من أهم وأشهر المنشآت المائية في العمارة الإسلامية لهذه الفترة.

برك الأغالبة: البركة الكبيرة والصغيرة - الدعامات نصف الدائرية

أقام الأغالبة خارج الأسوار إلى الشمال من مدينة القيروان، ما يقارب خمس عشرة بركة لتأمين تغذية المدينة بالمياه. هناك بركتان متميزتان مستديرتا الشكل تقريبا. وهما مبنيتان من الحجر الغشيم المغطى بطبقة من الطينة العازلة. البركة الصغيرة قطرها 17 م والكبيرة قطرها 128 م. دعمت أركان الأضلاع من الداخل والخارج بدعائم لها من الداخل مقطع نصف دائري لمقاومة ضغط المياه. كانت المياه تصل عبر قناة من الوادي إلى البركة الصغيرة أولا فتترسب فيها المياه، ثم تنتقل عبر قناة صغيرة إلى البركة الكبيرة لتغذي المدينة بمياه الشرب.

3. ربـاط سـوسة Ribat of Sousse

الرباطات هي حصون صغيرة اشتق اسمها من المرابطة وكانت مخصصة للدفاع عن الحدود، يقيم فيها مقاتلون ومتطوعون ندبوا أنفسهم للعبادة والجهاد. شيد عدد من هذه الرباطات على ساحل إفريقية أي تونس لأن البيزنطيون كانوا يسطرون على البحر المتوسط ويهددون السواحل. لم يبق من هذه الرباطات إلا القليل مثل رباط المونستير ورباط سوسة.

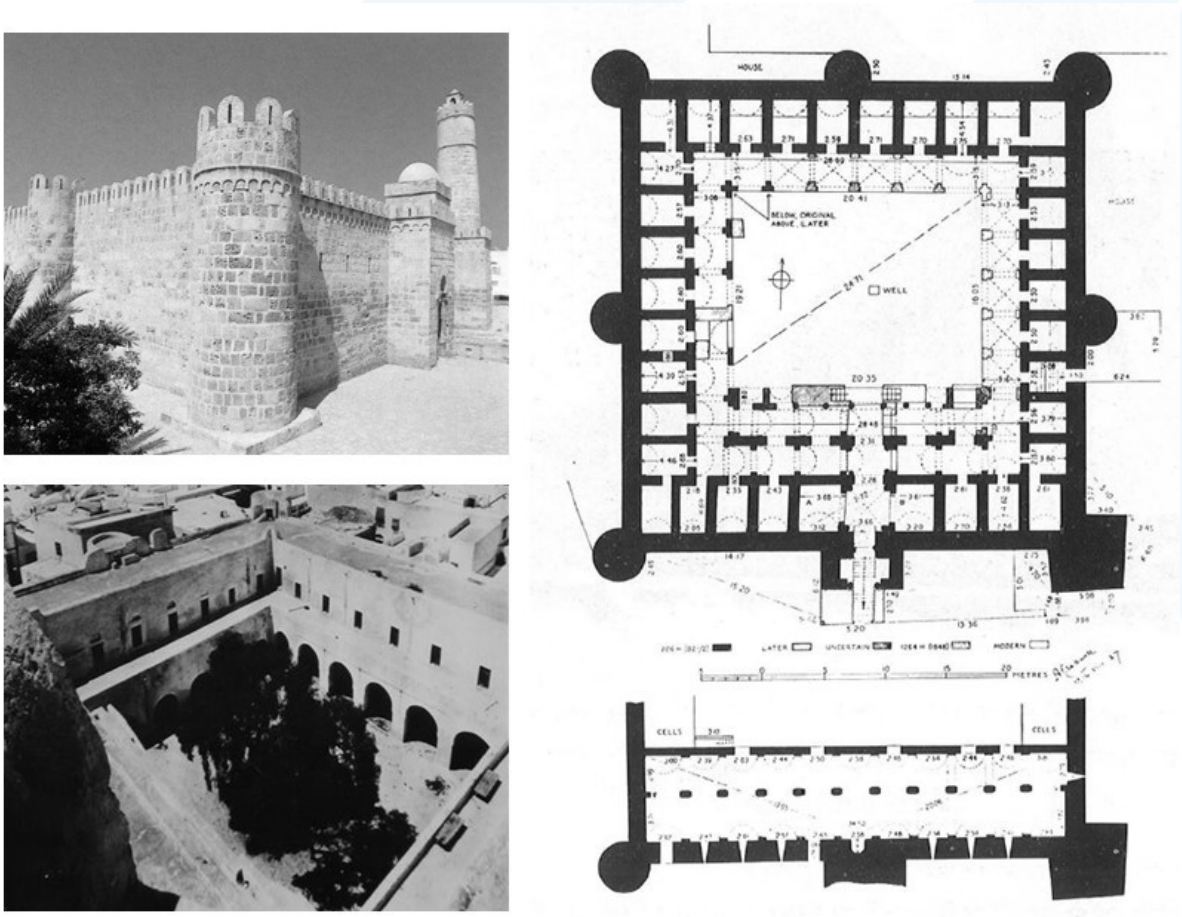

رباط سوسة: مسقط الطابق الأرضي والأول - واجهة - صورة علوية توضح الفناء والممر العلوي

رباط سوسة، الذي بني في عهد الأمير الأغلبي زيادة الله في عام 206 هـ/821 م ما زال بحالة جيدة. وهو يمثل هذا النموذج من المباني التي تجمع بين العمارة العسكرية والدينية والمدنية.

تصميم الرباط يشبه القصور الأموية. فهو مربع الشكل، طول ضلعه حوالي 40 م، مبني بمداميك من الحجر المنحوت. له سور مزود بالأبراج الموزعة في أركانه ومنتصف أضلاعه، شكلها دائري أو نصف دائري ما عدا البرج الجنوبي

الشرقي فهو مربع وبرج الباب الذي يتوسط الضلع الجنوبي فهو مستطيل وينتهي في أعلاه بقبة. وأقيم فوق البرج الجنوبي الشرقي منارة أو مئذنة أسطوانية الشكل كانت تستخدم للأذان وللمراقبة.

البوابة تؤدي عبر دهليز مقبي، يحف به من الجانبين غرف مخصصة للحرس، إلى الفناء الداخلي المحاط من جميع جهاته برواق يفضي إلى الفراغات المحيطة المختلفة. يتم الصعود إلى الطابق العلوي عبر درجين متقابلين يقعان جنوب الفناء. مسقط الطابق العلوي مماثل للطابق الأرضي، ولكنه يختلف بكون الرواق يصبح ممرا غير مسقوف وبأنه في الجناح الجنوبي يحتل مسجد يتألف من 11 مجازا عموديا على جدار القبلة مكان الغرف. سطح المسجد والغرف يشكل متراسا محاطا بحائط حجري ينتهي بشرافات أعلاها على شكل نصف دائرة وتتخللها مرامي السهام.